لقــاءات
لمحمد ديـب

ترجمة عن الفرنسية لمريزق قطـارة

(نص قصير عن طــفولة محمد ديب بقلم الكاتب ذاته نقدمه للقراء باللغة العربية مستلفتين إياهم إلى ملاحظة حضور كثير مما بهذا النص في ثلاثية" الجزائر" وفي رواية "من يذكر اليم"؛ كما نستلفت انتباه القارئ إلى أننا نواجه من خلال هذا النص القصير أهم مصادر تصور محمد ديب للغيرية. المترجم)

أول لـــــقاء

في الواقع، كان هنالك عالم آخر قائم إلى جانب عالمي الخاص، غير أني لم أنتبه إليه أبدا خلال طفولتي الأولى. طبعا، لقد تجولت مرارا بالمدينة رفقة هذا أو ذاك من أفراد عائلتي وبالتالي كان مفترضا أن نلتقي بمواطني ذلك العالم. غير أني طالما جمعت ذكرياتي لأسائلها وأستطيع الآن أن أقسم أن لا واحدة منها أشارت علي بأن مثل تلك اللقاءات وقعت بالفعل. فذاكرتي عن تلك الفترة لازالت خالية من أية ذكرى للأجانب أو ربما كانت لأولئك قدرة على الاحتجاب عن رؤية الآخرين. فصورهم لم تنعكس بتاتا على شبكة عيني أو قل أن عيني لم تجبلا على رؤيتهم. فهم، باختصار، لم يكونوا موجودين.

ثم حدث في يوم ما أن ظهر أحدهم عندنا، فنزل ببيتنا ذاته، قافزا بذلك فوق سنوات ضوئية كاملة من التجاهل. كان قد وقع لي حادث على مستوى الساق ألزمني الفراش طوال سنة كاملة. فكان الرجل الغريب عن عالمنا يحل ببيتنا في لفافة من رائحة الأثير ومعه، بين أصابعه، ابر طويلة رهيبة. كان الرجل الغريب ركين القوام زيادة على وجه مفرط البياض بدأ الارتخاء يتسلل إلى عجينه، وكان يتنقل بكل

كتلة جسمه دفعة واحدة، فيضغط أولا بكل أخمص قدمه على الأرض قبل أن يرفع القدم الأخرى. تصوروا إذا ما كان يمكن لذلك المخلوق أن يعانيه من متاعب الانحناء نحوي، وقد كان يجدني في كل مرة ممددا على حشية بمستوى الأرض. فالسرير لم تتسن لي معرفته إلا بعد مدة طويلة من ذلك.

يبدو أنه كان يزورني، خلال مدة معينة، كل يوم وفي نفس التوقيت. طرقتين حاسمتين بمطرقة الباب ثم يلج البيت: إنه هو. لم تكن طرقاته موجهة إلى باب البيت فحسب بل كانت تقع أيضا على بوابة قلبي. فيتفتت قلبي لتوه من الحزن. نعم، كان يتفتت من الحزن، لا أكثر، لأني كنت قد تعلمت مداراة مصيبتي بالصبر. زد على ذلك أني تعلمت التنبؤ بموعد دوي تلك الطرقات: فكأن أمي كانت تعلن عنها لما كانت تغلي مسبقا أمام عيني إبرتين لمحقن الدكتور فوتياديس (Dr Photiadis).

لم يكن الدكتور فوتياديس من سلالة أولئك الغاليين الذين عرفت فيما بعد، بالمدرسة، أنهم أجدادي الأوائل. فمواطن العالم الآخر الذي كان أمامي كان من أصل إغريقي. طبعا، كل ذلك عرفته فيما بعد، بعد فوات الأوان، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلي مع أشياء كثيرة أخرى.

في انتظار كل ذلك، لم أكن أرى بالوجه الشاسع المنحني نحوي إلا نظارتين مطوقتين بالأسود ونظرة ثاقبة حبيسة الزجاج، نظرة متلألئة، كلها ابتسام. كانت نظرة الدكتور فوتياديس مأهولة بطفولة كامنة، في حين احتفظت قسمات وجهه بثبات محايد. يالها من ابتسامة! لا أذكر أنه آلمني مرة واحدة بإبره.

كان الدكتور فوتياديس أول أجنبي على الإطلاق أتعرف عليه، فأنا ما ألتقيت قبله بأي أحد آخر غيره. لقد أنقذ ساقي من بتر محتوم لأننا كنا آنذاك بمرحلة ما قبل اكتشاف البنسيلين.

عدة سنوات فيما بعد أصبحت شابا بالغا في الثامنة عشر من عمره. غير أن مناسبة استشارته عادت إلي مرة أخرى. ففي بداية الحرب العالمية الأخيرة أحكم وباء التيفوس قبضته على تلمسان دون تمييز إن كانت ضحاياه من هذا الجانب أو من ذاك؛

فخلف عددا لا بأس به من الضحايا فكانت المواكب الجنائزية تتوالى طوال النهار نحو مقبرتي المدينة، مقبرة المسلمين ومقبرة المسيحيين.

كنت آنذاك قد تغيرت كما ينبغي غير أن الدكتور فوتياديس تمكن من التعرف علي. أما هو فقد بقي نفس الرجل الذي عرفت فيما مضى من الزمن، بنفس القوام الضخم ونفس الوجه الثخين بنفس النظارات السميكة ووراء العــدستين نفس النظرة، لاهية بنفس مقدار ما هي محتشمة. لقد أعطاني يومها قطعة كافور أحملها معي.

ثاني لقاء ــ

كان يدعى مسيو سوكيه (Monsieur Souquet). كنت في التاسعة من عمري في حين كان سنه يراود الخمسين إن صحت تقديراتي آنذاك. كان مسيو سوكيه بعــبعا ذا شاربين رماديين كبيرين متهدلين وبطن ضخم. لا، لم يكن طويل القامة، كان فرنسيا وكانت خشية الفرنسيين مستولية علينا، نحن الأطفال، إلى درجة أننا لم نكن نجرؤ أبدا على الاقتراب منهم.

غير أني وجدت نفسي فجأة محبوسا عدة ساعات من اليوم في نفس الحجرة مع ذلك الشخص، وهكذا دواليك طوال خمسة أيام من الأسبوع. لم يكن بإمكاني غير البقاء والتلاؤم مع ذلك الوضع، ومن حسن حظي كان هناك ثلاثون طفلا مثلي، من نفس العالم.

هو كذلك كان يحمل نظارتين ــ هم كلهم يحملون نظارات ــ غير أن نظاراته هو كانت ذات إطار من حديد.

كان مسيو سوكيه معلما *فرنسيا* عين للتدريس بالمدرسة العــلمانية العمومية الأهلية للمدينة وهي مدرسة كبيرة كانت تجمعــنا فيما بيننا بمعلمينا وهم كلهم جزائريون ما عدا اثنين أو ثلاثة كانوا يأتون من *هنالك*. هؤلاء كانوا دائما موضع استغراب لدينا بقدر ما كانوا يظلون غرباء بيننا لا تربطنا بهم روابط. لقد تلفظت شخصية بعيدة الشأو بتلك الفترة بحقيقة عميقة لما صرحت بأن الأجنبي يعرف من

رائحته. فكان بإمكاني من تلك اللحظة فصاعدا أن أراقب مسيو سوكيه عن قرب وبمهل، فاكتشفت بحق أن لذلك الفرنسي رائحة، رائحة جافة نوعا ما ، بيضاء نوعا ما غير أنها لم تكن بتاتا كريهة. كيف أصفها؟ إنها، باختصار، رائحة التبن أو شيء ما من هذا القبيل.

غير أن الأهم ليس في ذلك، إذ سرعان ما اكتشفت أنه كان تشخيصا لصنف من البعبع الحليم بالرغم من شاربيه الكبيرين وصوته الجهور وبطنه الضخم وعينيه الجاحظتين، وهو اكتشاف كانت له عن حق أهمية من نوع آخر. كانت فرائصي ترتعد بلا انقطاع بمحضره، ثم قل الهلع منه شيئا فشيء إلى أن اندثر تماما: يجب أن أعترف أننا بدأنا نتعلم على يده آنذاك أشياء كثيرة مفيدة.

نعم، كان مسيو سوكيه طيب القلب غير أنه كان صارما فيما يخص العمل والسلوك. فلم يكن يحجم أحيانا عن رفع صوت يهتز له زجاج نوافذ القسم وكان يعاقب التلاميذ السيئين بطريقته المفضلة التي تتمثل في سحق رأس المرء بقبضة جد ثقيلة ولو أنها لينة من فرط سمنتها. غير أنه لم يسئ استعمال طريقته بتاتا، فهو كان شديد الاقتصاد في اللجوء إليها بل كان يدخرها للحالات الخطيرة أو القصوى.

لم أنج أنا بدوري من التعرف على تلك القبضة. لقد لقننا مسيو سوكيه أن صياغة جمع النكرة تكون على العموم بإضافة حرف 'S' إلى آخر مفردها. غير أنه حدث، من سوء حظي، في يوم ما أن وردت كلمة puits (بئر) في تمرين من تمارين الإملاء. أعلن مسيو سوكيه فور اطلاعه على كراسي أنني ارتكبت خطاء بكتابة الكلمة هكذا « puit» بدون'S' في آخرها. فاعترضت على قراره ملاحظا أن الكلمة وردت مفردة في نص الإملاء، فرد بدوره أنه رغم ذلك يجب أن تكتب بحرف 'S' بآخرها. غير أنني أصررت في رفضي للفكرة ولتطبيقها في آن واحد، فبتت المسألة أمام تلاميذ القسم كله بلكمة على رأسي أتذكر أنها أفحمتني دون أن يلحقني منها أكثر من الأذى الذي لحق بكبريائي. وها أنا ذا إلى حد اليوم أكتب كلمة puits على تفردها وبزائدة غير مبررة، أكتبها كذلك مخالفا قناعتي الخاصة، أكتبها كذلك تذكرا لمعلمي الكريم فقط.

كانت فترة الاستراحة تردني دوما إلى عنصري الأصلي: فما كان بساحة تلك المدرسة الأهلية إلا جزائريون ناشئة. يجب أن ألاحظ دون إلحاح أننا كنا نجهل بتلك الفترة كلمات: جزائريون، جزائر أو *الجزائر* (كما تنطق باللغة العربية). فلا أحد حدثنا عنها أو شرح لنا دلالاتها أو ما كانت تشير إليه: لا أهلنا بالبيت ولا أي أحد خارج البيت. المدرسة هي التي علمتنا كل ذلك فيما بعد، فاكتشفنا أننا من بلد معين وأننا ننتمي إلى أرض منفردة.

ما كنت أكاد ألج الساحة أثناء الاستراحة حتى أنسى، أو بالأحرى ننسى، مسيو سوكيه الذي حل بيننا كمندوب عن كوكب غير كوكبنا. في الواقع لم يخطر أبدا ببالي أن يكون له مسكن وحياة عائلية، وقد كان علي أن أفكر في الأمر من قبل ذلك بقليل، إذ حدث أنه نزل ذات صباح بقسمنا رفقة طفل بسننا ذي بشرة لبنية كانت من الرخو ما جعلنا نتساءل كيف لم تذب على هيكله.

كان من شأن فرنسي في طور الصبا أن يثير دهشتنا أكثر مما يثيرها فرنسي راشد، لذلك كنا بحق كلنا عيونا جاحظة لا تحيد بتاتا عن ذلك الطفل؛ ولم نعر الدراسة أي اهتمام لأننا أصبحنا غير قادرين على عمل شيء غير التحديق به. ساد بالقسم خلال الأيام الأولى من مجيئه جو خاص كله سحر واهتمام وحذر. فمجرد حضوره ترك بيننا بلا شك إحساسا ما، جديدا تمام الجدة لدينا، بتغير شيء ما حوالينا بل وحتى بأنفسنا ذاتها.

كان الطفل ابنا لمسيو سوكيه؛ هل كان يدعى جورج؟ لست متأكدا تماما من ذلك. كان بصدد الالتحاق بقسم أبيه أي قسمنا نحن للدراسة فأخذنا الحدث على غرة. ولما أبصرته جحافل شياطين الأقسام الأخرى بالساحة قامت الثورة. غير أنها كانت ثورة صامتة. فأولئك الذين لم يكونوا من قسمنا لم يتمكنوا من معرفة من كان منتصبا أمامهم فتوقف الهيجان المألوف فجأة دون مبرر وبقي كل التلاميذ، بما فيهم نحن، مشدوهين. لم يدم ذلك في الواقع سوى لحظة قصيرة غير أنها كانت لحظة من أزل.

ثم اقتربنا منه شيئا فشيء بتحفظ واكتفينا بملاحظته. كيف كان مكسوا: أحسن بكثير من أي واحد منا؛ كيف كان محتذيا: أحسن بكثير كذلك؛ كيف رتب شعره، كيف

كان ماكثا. هو، لم ينبس ببنت شافة. لم يبادلنا ولو كلمة واحدة ولا نحن فعلنا، لأننا ــ رغم تمكننا من القراءة ــ لم نكن متمكنين بعد من التحدث باللغة الفرنسية ولم نكن نتصور بتاتا سماع تلفظ منه بلغتنا.

لم يكن ذلك الاضطراب الذي لحق بعاداتنا إلا فاصلا قصيرا، فجورج ــ إن كان حقا يدعى كذلك ــ اختفى سريعا عن قسمنا وعن مدرستنا وعن حياتنا، فلم يكن لنا متسع من الوقت للتعود عليه ولا هو للتعود علينا.

طبعا، الأب سوكيه بقي بيننا. ذلك الرجل، اكتشفنا يوما بعد يوم أنه كان أحسن الناس طرا لسبب بسيط هو أنه لم ينه يوما دروسه دون أن يقص علينا قصة. كانت قصصه على العموم قصيرة وطريفة إلى درجة أنها كانت تجعلنا نصيح من الفرح وقد كان يسمح بذلك حينها لأنه يكون آنذاك غارقا في الضحك معنا. أتذكر جيدا كيف كان يقهقه تحت شاربيه الأشعثين إلى أن تغرورق عيناه بالدموع. لذلك لم يحدث قط أن غادرنا المدرسة غير منشرحي الصدور ونحن نعرف مسبقا أن التاجر الإسباني ينتظرنا بالباب ومعه قضبان السكر المعطر بماء الشعير والحمص المحمص.

ما كنا لنفزع من ذلك التاجر أبدا، ليس لأنه كان أرمص العينين ضعيف البنية بل لأنه كان من عندنا، قريبا منا. نفس الأمر كان مع داود اليهودي الذي كان يدير كشك حلويات تونسية بالساحة الكبرى حيث كان ملتقى التلاميذ الأغنياء ببضعة فلوس. كان داود أكثر قرب منا، كان قريبا منا إلى درجة أنه لم يكن يبخل أبدا علينا ببعض الزيادة بعد إعطاءنا مقابل فلوسنا من نوغا اللوز بالعسل سرعان ما يلتهم.

إلى جانب هذين اللقاء ين لقاء آخر حدث دون أن أنتبه إلى حدوثه. انه اللقاء الذي سيبدو فيما بعد ذا دور حاسم في حياتي بتعديل مسارها نحو اتجاه ما ودفعها به بقوة الضرورة أو القدر: إنه اللقاء الذي وضعني أمام لغة كانت تبدو لي صعبة التناول بنفس مقدار ما كانت تغريني، إنها اللغة الفرنسية. غير أن ذلك يعد تماما قصة أخرى، قصة من ذلك النوع من القصص التي لا تعرف نهايتها.

بذكر تلك الأزمنة البعيدة يمكنني إذا أن أصرح أنني كنت آنذاك حضريا فلم أكن أعرف في الواقع إلا ما كان يقع تحت بصري بالمدينة ولا شيئا مما كان يقع بخارج

المدن، أي في الأرياف مثلا، وهذه الأخيرة كانت تشكل من ناحيتها، هي كذلك، عالما غريبا قائما إلى جانب عالمي الخاص. غير أننا أطلعنا على ما يخصها عدة سنوات فيما بعد، أثناء الحرب العالمية، لما رأت عيوننا ما لم يمكنها آنذاك تصديقه: تلك الأرتل من الفلاحين الذين كانوا يتهاطلون على شوارعنا النظيفة أيما نظافة المصانة أيما صيانة ويموتون بها. فهم ما كان لهم من عدو سوى الجوع.

المرجع:

DIB, Mohammed : « *Rencontres* » in Une enfance Algérienne, Textes recueillis par Leïla Sebbar, Paris, Gallimard, Collection « Folio n°3171 », (1997) 1999, PP.115-125.